مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies
تعليقات

ليبيا: مستقبل عملية الكرامة في حال غياب المشير خليفة حفتر

د. محمد السبيطلي

أبريل ٢٠١٨

لا يبدو أن الأطراف المحلية والإقليمية والدولية الضالعة بطريقة أو بأخرى في الملف الليبي قد تساءلت يوماً ما وبصورة جدية؛ عن الانعكاسات المباشرة لفرضية خروج المشير حفتر من المشهد الليبي لسبب أو لآخر، مثلما هو الشأن في الأيام الأخيرة. وبالرغم من نفي الجيش الليبي الأخبار التي تحدثت عن تدهور خطير لصحّة قائد الجيش الليبي المشير خليفة حفتر (البالغ من العمر ٧٥ عاماً)، وعلى الرغم من تأكيد الصحافة الدولية نقل الرجل القوي في شرق القطر الليبي إلى باريس ودخوله أحد مستشفياتها للمعالجة من جلطة دماغية (أو نزيف دماغي حسب بعض المصادر أو غير ذلك)، إلا أن بعض الإعلام العربي – المحلي والدولي – انساق أيضاً وراء الناطق الرسمي باسم الجيش الليبي، الذي ظل يصر على أن السيد حفتر موجود على الأراضي الليبية، ويتابع من غرفة العمليات الاستعدادات لاقتحام مدينة درنة الواقعة شرقي ليبيا.

مهما يكن من أمر، ومهما كانت خطورة الحالة الصحية للمشير المتقاعد من عدمها، لا بد من طرح سؤال جوهري عن مستقبل مشروع "عملية الكرامة" في ليبيا في حال خروج خليفة حفتر من الساحة السياسية؟ وما النتائج المتوقعة لذلك؟ وكيف يمكن أن يتم تدبير حالة الشرق الليبي دونه؟ وما دور القبائل المتحالفة معه في الشرق والجنوب الليبي في اختيار قيادة عسكرية بديلة؟ وما الأسماء المرشحة لذلك؟ وما الأدوار العسكرية والسياسية المناطة بأبنائه؟ وما مدى تماسك التحالف القبلي والسياسي الذي تستند إليه قيادة الجيش الليبي في شرقي ليبيا؟ وهل السياق الليبي الحالي مناسب لانتقال سلس للسلطة في بنغازي في حال غياب السيد حفتر؟

فمنذ انطلاق "عملية الكرامة" سنة ٢٠١٤م شهدت الدائرة العسكرية المحيطة بالسيد حفتر تطورات كثيرة تشير إلى عدم استقرار تركيبتها وعدم تجانسها. فمن جهة تم انشقاق قيادات كبيرة من حوله، ومن جهة أخرى تم الحديث عن تصفية بعض القيادات الأخرى في ظروف غامضة.

ويعتمد السيد حفتر على مجموعة من القيادات العسكرية التي تعود من حيث الأصول إلى قبيلة الفرجاني مثله وبالأساس من منطقة سرت، ويُذكَر منهم العميد عون الفرجاني، وهو من أبرز رجال الاستخبارات في نظام القذافي في الثمانينيات، وانشق عنه منذ اندلاع ثورة فبراير ٢٠١١م، لكنه لم يشارك فيها ولم يتولَّ أي منصب في إطار المؤسسات التي انبثقت عنها، وقد أسهم في إطلاق عملية الكرامة وأسس جناحها الاستخباراتي، وأصبح من الشخصيات الأساسية فيها والمقرّبة من قائد الجيش الوطني، كما يعد من الوجوه المرشحة لخلافة حفتر في منصب قيادة الجيش في المنطقة الشرقية.

وكذلك يُذكَر الضابط سليم محمود الفرجاني المسؤول عن أمن الدولة. فقد كان رئيس العمليات والتحريات للأمن الداخلي للمنطقة الشرقية، وكان آمراً لكتيبة ما كان يُطلق عليه في عهد القذافي "مكافحة الإرهاب والزندقة" قبل ثورة فبراير ٢٠١١م، وكان آمر التحريات للشرطة العسكرية، وكان أيضاً آمر العمليات الخاصة في خارج "الجماهيرية الليبية" وشارك في حرب تشاد.

كما يُذكَر في هذا السياق بلقاسم الفرجاني الضابط الممسك بجهاز الأمن الداخلي.

هذه بعض القيادات العسكرية التي يمكن أن يكون لها دور بارز في استمرار العمل الذي بدأه خليفة حفتر في شرق ليبيا منذ ٢٠١٤م. إلا أن الرجل الثاني في عملية الكرامة هو الفريق عبد الرزاق الناظوري – رئيس الأركان العامة للجيش الوطني – الذي اكتسب دعم وحدة "الصاعقة" وقبائل العواقير، ويعد أبرز المرشحين لخلافة المشير حفتر في حال غيابه عن قيادة عملية الكرامة، وهو الحاكم العسكري للمنطقة الممتدة من درنة إلى بني جواد، ويلاحظ أنه ليس من الفرجان مثل بقية الضباط المقربين من المشير حفتر، بل هو أصيل مدينة المرج التي احتضنت عملية الكرامة منذ بدايتها، ثم أصبحت مقر مكتب المشير حفتر إلى اليوم. وقد انتشر خبر في بداية الإعلان عن مرض المشير حفتر يفيد بأنه تم تعيينه خليفة له من قبل رئيس البرلمان عقيلة صالح، وهو ما اضطره إلى نفي الخبر. وقد تعرض لمحاولة اغتيال إذ استهدف موكبه في منطقة سيدي خليفة شرقي مدينة بنغازي يوم الأربعاء ١٨ أبريل ٢٠١٨م. وكان معروفاً بمعارضته لنظام القذافي منذ التسعينيات من القرن الماضي، وشارك في محاولة انقلابية سنة ١٩٩٣م سجن على إثرها لمدّة ١٣ سنة. كما يعد من الشخصيات العسكرية الوفية لقائده خليفة حفتر. وعُرف ببعض المواقف الحادة والمثيرة للجدل؛ لذلك قد يكون الأوفر حظاً في خلافة المشير، لكنه يواجه منافسة حادة من قبل تحالف يجمع أبناء حفتر واللواء عبد السلام الحاسي.

ويذكر أن من بين المرشحين لخلافة المشير حفتر أبناءه وخاصة النقيب خالد والنقيب صدام اللذين يقودان الكتيبة ١٠٦ في بنغازي، وقد أقاما تحالفاً قوياً مع مجموعات أخرى تسيطر على بعض أحياء بنغازي في مواجهة تحالف العواقير والورفلة، إلا أن محدودية تجربتهما العسكرية والسياسية قد لا تساعد على تسلمهما مقاليد القيادة العسكرية لعملية الكرامة، لكن يبدو أن أبناء المشير يميلون إلى أحد رجاله الأوفياء وهو اللواء عبد السلام الحاسي.

ينتمي الحاسي إلى قبيلة "الحاسة" وهي من قبائل شرق ليبيا، ويُعرَف بكونه من أعمدة عملية الكرامة، وكان له دور بارز في الثورة التي أطاحت بالقذافي سنة ٢٠١١م؛ إذ كان مكلفاً بالتنسيق مع حلف الناتو أثناء عمليات هذا الأخير ضد كتائب النظام الليبي. كما اعتُمِد من قبل المشير في العديد من المهام الداخلية والخارجية مثل: ترؤس وفد لدى الخرطوم سنة ٢٠١٨م لتحسين العلاقات مع النظام السوداني. ومحصلة القول أن الحاسي يعد المستشار الأمين للمشير حفتر، ومن ثم تبدو حظوظه كبيرة أيضاً في وراثته على رأس جيش الكرامة.

وعلى العموم، هؤلاء المرشحون لخلافة المشير حفتر ليسوا بالشخصيات السياسية، بل هم عسكريون ولا تتوفر فيهم أية نسبة من الكاريزما التي امتلكها خليفة حفتر منذ تزعمه عملية الكرامة شرق ليبيا، فلا يمكن بحال إنكار شعبية الرجل

في الشرق وفي بعض المناطق الأخرى من الأراضي الليبية، وقد شكل في بعض الأوقات ملاذاً لبعض القطاعات من الشعب الليبي في الخروج من مأزق الحرب الأهلية والدمار الذي لحق بالبلاد. وهذا رأي يخالفهم فيه قطاعات شعبية أخرى؛ نتيجة علاقات الرجل الإقليمية، وطموحه السلطوي، وخشيتهم من وجود تجربة ثانية يشبهونها بالعهد السابق للثورة.

والخلاصة أن عملية الكرامة قد تتوفر على رتب عسكرية عالية ترث الدور القيادي العسكري لخليفة حفتر، لكنها تفتقد القيادة السياسية البديلة عنه.

وفي النهاية لا يبدو أنه ثمة إجماع حول شخصية من الدائرة الضيقة التي تحيط بالمشير حفتر، خصوصاً أن بعض هذه القيادات حصلت لها إشكالات مع بعض شرائح مجتمع الشرق الليبي حدَّت من شعبيتها أو شوهت بعضاً من صورتها. والسمة البارزة للتحالف الذي أقامه المشير حفتر والدائرة المقربة منه من الشخصيات هي الانقسام والتنافس؛ لذلك فإن الوصول إلى إجماع حول الشخصية التي يفترض أن تحل محل القائد الأعلى للجيش الليبي في إقليم برقة سوف يستدعي تدخل أطراف عدّة في الداخل والخارج. لكن ما الأطراف الفاعلة في الداخل والتي يمكن أن يكون عملها حاسماً في هذا الخصوص؟

انطلقت عملية الكرامة من احتضان قبائل الشرق الليبي لها في مدينة المرج والبيضاء وطبرق قبل أن يتم السيطرة على بنغازي والمدن المجاورة الأخرى باستثناء مدينة درنة. وكان لقبيلة العبيدات الدور البارز في ذلك. إلا أن قبائل العواقير كانت حاضرة أيضاً، وكذلك المغاربة والبراعص والدرسة... هذا إلى جانب حضور ملحوظ للفرجاني والورفلة. لقد مثلت قبائل الشرق الليبي بالنسبة لعملية الكرامة حاضنة شعبية مهمّة. كما وفرت هذه القبائل الكثير من القيادات العسكرية البارزة التي أسهمت في تأسيس وانطلاق "الكرامة" بقيادة الجنرال حفتر. وهي التي احتضنت المؤسسات المدنية مثل: حكومة عبد الله الثني في البيضاء أو البرلمان في مدينة طبرق. وكان ما يجمع التحالف القبلي السياسي هو مكافحة الإرهاب، واستفحال وانتشار الجماعات المتطرفة في المنطقة. لذلك وباستثناء المشروع الفدرالي الذي يعرف بانتشاره في صفوف سياسيي المنطقة الشرقية أو ما يسمى بإقليم برقة؛ لا نجد مشاريع أخرى سوى الذي يتزعمه السيد حفتر والذي يتمثل في النهاية في تكريس سلطته بوصفه زعيماً ليبياً.

ومن الملاحظ أيضاً أن السياق الذي جاء فيه مرض السيد حفتر تمثل بالجمود السياسي العام بخصوص الملف الليبي. فالمبعوث الدولي للأمم المتحدة لم يتمكن إلى حد الآن من تحقيق اختراق يذكر رغم اللقاءات التصالحية التي أشرف عليها سواء في تونس أو في مختلف المدن الليبية. كما أن الجهود التي تبذلها الحكومة المصرية لتوحيد المؤسسة العسكرية الليبية لم تضفِ إلى نتيجة حتى الآن. أما من جهة غرب ليبيا، فانتخاب رئيس جديد للمجلس الأعلى للدولة (خالد المشري) – الذي بادر بالدعوة للقاء رئيس برلمان طبرق عقيلة صالح الذي استجاب لذلك – يعد خطوة تصالحية مهمّة. فهل يدفع غياب المشير حفتر إلى تيسير توحيد المؤسسات السيادية الليبية شرقاً وغرباً؛ استعداداً للانتخابات الرئاسية والاستفتاء على الدستور في نهاية السنة الجارية؟

من جهة ثانية تمتلك حكومة الوفاق التي يترأسها فايز السراج إمكانية الوصول والتأثير في حاضنة عملية الكرامة في غياب زعيمها، وعدم تجانسها وتلاحمها حول شخصية قائدة موحّدة، فالعديد من الشخصيات البارزة في حكومة الوفاق والمجلس الأعلى للدولة هم من القيادات العسكرية السابقة لعملية الكرامة، وينحدرون من القبائل الحاضنة لها في الشرق الليبي؛ لذلك قد تعود وتحاول من جديد الاقتراب من الأوساط العسكرية والأعيان القبليين ونواب طبرق... وتحقق اختراقاً يمهد لمصالحة تتم في إطار جهود المبعوث الأممي غسان سلامة وبالتنسيق مع كل الأطراف الليبية الفاعلة شرقاً وغرباً وجنوباً.

لكن من جهة أخرى أي انحسار لدور المشير خليفة حفتر على الساحة السياسية الليبية سوف يستفيد منه سيف الإسلام القذافي، الذي ينافسه في صفوف القبائل والأوساط العسكرية المتعاملة الآن مع عملية الكرامة. وللعلم فإن سيف الإسلام استفاد من بقايا أتباع نظام والده في المنطقة الوسطى والغربية، وله أنصار كثر في أوساط قبائل الورفلّة والفرجان، ومن ثم خلو المجال من حفتر سيكون مناسباً جداً له. هكذا إذاً تبقى الساحة الليبية مفتوحة على خيارات سياسية عدّة.

شكل مرض حفتر فرصة لكل الأطراف الليبية بإقليم برقة والداعمين الإقليميين والدوليين له؛ للتفكير في ترتيب مسار خلافته، وذلك لمنع انهيار عملية الكرامة من جهة، وكذلك لتجنب انفراط عقد التحالف الذي شكله في شرق البلاد من جهة أخرى. لكن بالتأكيد لن تقبل الأطراف الإقليمية الداعمة وكذلك الفاعلون المحليون في الشرق بانهيار عملية الكرامة قبل أن تخرج البلاد من المأزق السياسي الذي تعيشه منذ ٢٠١٤م، في سياق حل شامل ومؤسسات دائمة.

وتبقى العقبة متمثلةً في الوجه السياسي الذي يمكن أن يحل محل المشير حفتر، فما الشخصية السياسية التي يمكن أن تتزعم تحالف الشرق الليبي مستقبلاً؟ وفي غياب حفتر هل يمكن للذين راهنوا عليه سابقاً بأنه سيكون الرجل القوي الذي يحكم ليبيا؛ أن يتوجهوا إلى غيره من خارج عملية الكرامة؟